

سرديات ابن بطوطة

وعناصر دافعة لمباحث مستقلة تستقي من هذا السفر مادتها. ويمكن أن يكون نوع الطعام في شتى البلدان كتابا ثريا من نوعه في وصف الأطعمة القديمة ومصادرها النباتية والبحرية كموسوعة تاريخية لأصناف الغذاء التي يتناولها سكان الأمصار والدول والقصبات والقرى التي وطأها ابن بطوطة. بمعنى معاينة المطبخ القديم وكيفية إعداده، وهذا جزء يهتم السرديات الحديثة التي تنهت إلى الهوامش وتحيبها من جديد بضوء مفاتيح النصوص الحديثة التي جمعت النصوص المتفرقة تحت سميات مختلفة في نص جامع واحد. فالأطعمة وأنواعها ومصادرها النباتية توفرت قدرا كبيرا من المعلومات القديمة التي لا يمكن الاستغناء عن معرفتها.



رغم فريدة رحلة ابن بطوطة فإنها لم تفكك إلى عناصر سردية مختلفة ومتعددة في ضوء القراءات النقدية

الأشجار والنباتات والفواكه والخضروات والمزارع والبساتين والغابات وأنواعها وأصنافها ومواسم نضجها مبحث جغرافي فريد في هذه الرحلة الموسوعية التي ضمت كل شيء في جوانبها الكثيرة، ولم يخل ابن بطوطة على ذكر أقل الأشياء وأصغرها وأكثرها في سرديات الرحلة التي بلغت ذاكرته العجيبة على مفردات كثيرة، كالطيور ومسمياتها ومواسم هجرتها. والبحار وأطوالها وأعماقها ومسمياتها وملتقياتها. والسفن الصغيرة والكبيرة وكيفية صنعها وأسمائها وأنواعها وتفصيلاتها الكثيرة التي لا تغيب عن معرفتنا بكل تأكيد.

في الشأن الاجتماعي وقف ابن بطوطة على الكثير من المفاسد الجوية التي تشد الناس إلى بعضها في الدين والطقوس والشعائر وبناء الكنائس والمساجد والجوامع، مثلها الأزياء المدنية والشعبية والبرية والبحرية التي تضيف إلى سجلات السرد الكثير من المعارف، وتكشف النوع السائد في زمنه، ومثلها التطبيب البدائي بالأعشاب التي يمكن أن تكون مصدرا علميا للإنسان القديم. مر ابن بطوطة بالكثير من الأمراء والسلاطين والقادة العسكريين والقضاة في مختلف الأمصار التي وصلها ووقف في الكثير من أجزاء الرحلة على طرائق حكمهم، وصور لباسهم وعددهم القتالية والحربية كما صور قصورهم ورياشهم وبيوتهم وطرق معاملتهم مع الرعية، ولم يترك شاردة ولا واردة في هذا الشأن إلا وجاء بها تعزيزا لفتنته في مراقبة الأمكنة. فالمكان القديم هو المهيمنة الأساسية على هذه الرحلة الطويلة. فالمدن التي ربما اندثر الكثير منها في الوقت الحاضر تحتاج إلى دراسات كثيرة وإحياء جديد، ويمكن أن تشكل عنوانا مهما في العمارة والبناء. تفكيك مثل هذه الرحلة إلى عناصر سردية مختلفة ومتعددة في ضوء القراءات النقدية، وإنشاء مكونات قصصية جديدة راصدة لكل فقراتها ستنتج كتابا آخرى موازية لهذه الرحلة العظيمة في ضوء التشكيل السردية النقدي الجديد.



ابن بطوطة الرحلة الملهم دائما

وارد بدر السالم
كاتب عراقي

ترك لنا الرحالة العرب القدماء كنوزا معرفية ثرية في ما يسمى بـ"أدب الرحلة". جابوا من خلاله الدول والأمصار والبلدان القريبة والبعيدة عبر البحار والبراري والسهول والجبال، وهو أدب استثنائي في الحياة السردية العربية القديمة نظرا إلى ما توفر عليه من معطيات معرفية واستكشافية للآخر شملت المتن والهامش في حياة الشعوب. ولم يُبقَ لا صغيرة ولا كبيرة إلا وأدرجتها ضمن مفهوم معاينة الآخر والنقاط الأثر العياني والخرافي والأسطوري والديني والاجتماعي والسياسي، ويمكن تشبيه أدب الرحلة القديم مثل صندوق مقل يضم في جوفه الكثير من خفاياه وأسراره الكثيرة حتى اليوم. مثلما هو كتاب "تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" للرحالة العربي محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي الملقب بـ"ابن بطوطة" الذي تمكنت من قراءته أخيرا بعد تأجيلات استمرت ربع قرن. هذه الرحلة سفر عظيم وباهر قطع فيه الرجل ما يقارب 120 ألف كيلومتر وهو رقم قياسي بالمعايير كلها في زمن كان فيه السفر الطويل مستحيلا بسبب وسائل النقل البدائية وتباعده الدول والأمصار التي تفصلها البحور والصحارى والجبال؛ غير أن ابن بطوطة خرق المعتاد وقضى 27 سنة (1325-1352م) في الترحال فطاف بلاد المغرب ومصر والحبشة والشام والحجاز وتهامة ونجد والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر والهند والصين ووصل إلى بلاد التتار وأواسط أفريقيا.

ويمكن ابن بطوطة من أن يرى العالم القديم كله جوابا وشاعرا وقاضيا وسفيرا، ليصفه في هذه الموسوعة وصفا فائقا وروصينا وقف فيه على عادات الشعوب ودياناتها وحياتها اليومية والعسكرية، وتحدث فيه عن أهلها وحكامها وعلمها وعلماؤها وتجارها وتجارها. ووصف البناء والعمارة ومزايده وطرائقه. كما وصف الألبسة بالوانها وأشكالها وأنواعها ولم ينسأ لأطعمة وأنواعها وطريقة صنعها. ومما يزيد من جماليات هذا الأثر التاريخي هو الواقع الزاخر بالحركة والتعبئة اليومية لزوايا الحياة، سياسة وتجارة وزراعة وعلوما.

وهذا الموسوعة التاريخية والجغرافية والثقافية والجمالية تحتاج إلى فيض من الدراسات المستحدثة بضوء المناهج النقدية الجديدة التي تتعامل مع النص كوحدة سردية مستقلة، لكن من وجهات نظر مختلفة وزوايا رصد جديدة. فمفاصل الرحلة البطوطية كثيرة والمداخل إليها أكثر، ويمكن بهذا الصدد معاينة مفردات واسعة فيها والكتابة عنها، فمثلا يمكن أن تكون العجائب والغرائب التي صادفها ابن بطوطة في البلدان المتعددة التي وصلها مبحثا فريدا من نوعه، فالحالات الغريبة والعجيبة التي توفرت عليها الرحلة هي مصدر سردي واسع النطاق على صعيد تجارب الشعوب القديمة. فيه من الخيال والأساطير والخرافات والتقاليد الشعبية والإعراف اليومية التي تشد المجتمعات والشعوب لحياة معينة من دون غيرها. وكل هذه المفردات هي مكونات سردية

عالم الصمت.. أتلانتس المفقودة التي يجب أن نبحث عنها

الفيلسوف السويسري ماكس بيكار يشيد للقراء عالماً شبه مندثر



ليس للصمت بداية، إنه مخلوق قبل الوجودات والمعاني كالحب والموت

الصمت ينبوع نقي يجدد ابتكار اللغة والكلمات، ويصفيها من الرداء، ويجعلها تستمد منه براءتها وبساطتها وأصالتها ورونقها

ويؤكد أن هناك مسعى للخراب والتدمير يعم هذه العوالم والشعائر المزمحة، وبالتالي "لم تعد هناك وحدة عالية للروح والدين والسياسة، وتوجد بدلها وحدة عالمية للضوء". هناك بقايا صمت يحاول بيكار استعادتها

واسترضاءها، وهي تلك الأشياء التي لا يمنحها أحد الصمت أو يسلبه منها على حد ما نلقي في قول أحد الفقهاء لآخر "لا أحد يمنحني احترامه، لذلك منحت نفسي الاحترام، وبطريقي".

يمسك بيكار بعالم شبه مندثر ويعد تشييده بين القارئ وصمته الخاص، وبين الصمت والشعر والحقيقة والإيمان والتاريخ والأمل والأخيلة واللغة والأنا والعرفة والحس وغيرهما من المعاني المتصلة بقيمة الإنسان الوجودية، ولا يفصل أيضا عن البحث في علاقة الطبيعة بالصمت والحيوانات والزمن ووجه الإنسان، وكذلك عن الشيطاني في الصمت وفي الكلام.

يعدنا هذا الكتاب إلى مكان منسي وغائب يمكننا من خلاله الخروج من بين الحطام واللجوء إلى الصمت للاستشفاء من أمراض العالم الحديث كالقلق والخوف والتوتر والشعور الدائم بحالة العجز وعدم بلوغ الغاية. وهو الكتاب الأول الذي تُرجم إلى اللغة العربية للفيلسوف واللاهوتي ماكس بيكار رغم علو كعبه الفلسفي وتأثر الشاعر ريلكه والروائي هيرمان هيسه، واتفاق قراء أعماله على وصفه بـ"ضمير أوروبا". تقوم الأفكار الرئيسية لبيكار على وقوف الإنسان بين طرفي معادلة شاققة "مسؤولية محتومة وإمكانية في الاختيار" ويعتبر ما لحق بالبشرية من مأس تالية إنما هو نتيجة منطقية لانعدام التوازن بين طرفي هذه المعادلة. ويصف بيكار في كتابه "هتلر في نفوسنا" التحول الاجتماعي والنفسي الذي حدث للإنسان في العصر الحديث ومهد لصعود هتلر. وكان بيكار قد درس الطب ولكنه هجر ممارسته ليتفرغ لفهم عذابات الإنسان واستخدم معرفة الطبية والنفسية للتعق في الرؤى الميتافيزيقية والدينية.

ملبية بالحرز والريبة، وينبغي عليها أن تختفي مرة أخرى.

الصمت يجلب الحزن للإنسان، لأنه وفق ما يقول بيكار "يذكره بتلك الحالة التي لم تكن فيها قد وقعت بعد السقطة التي سببتها الكلمة". ويرى هذا الفيلسوف أن الصمت مختبر حي للإبداع والأعمال الخلاقية، وهو إلى ذلك المكان المركزي للإيمان، وفيه يكون المؤمن جاهزا للتنازل عن الكلمة وإعادةها إلى الله ليستلمها ثانية. وبسبب ذلك علينا أن ننسى الكلمات، وأن نخلك عنها، ليمتصها الصمت، ونذهب في طريقها إلى الموت، ننسأها لنستطيع التسامح.

مرثية للصمت

يصف بيكار أصوات الموسيقى بأنها حركة وإيقاعات تحدث فوق سطح الصمت وهي جزء منه لا تقبضه، الموسيقى فسحة للأرواح تنزله فيها بلا خوف، لأنها موطن الأرواح الأخرى التي اغتربت عنه وغادرت ولا شيء قادرا على حمل الموسيقى إلى الأرواح سوى الصمت.

ويتناول بيكار بالبحث الصمت واللغة وما يحمله كلاهما من حقيقة، ويقر بأن الحقيقة تجلج في منطق اللغة

ويقتلها، وقد تعمل اللغة على تعميم الحقيقة بزوغاتها وزيفها. لكنه يرى تجلي الحقيقة في الصمت أيضا، ذلك أن "وجود الحقيقة في الصمت إنما هو بمقدار مساهمة الصمت في الحقيقة الحاضرة في نظام الوجود عموما". فالحقيقة في الصمت هاجعة وخامدة وحيادية بعكس وجودها في اللغة،

لأن من طبيعة اللغة ألا تستمر دون حملها الحقيقة، ودون ذلك تندثر وتصبح ضبابا يغطي الصمت. والصمت بدوره هو اللغز الذي يطوق الحقيقة، ويجب أن تبقى لغة الحقيقة وكلماتها على اتصال بجزءه بغير إتقان، ويتحتم عليه، بغية أن يموت بنجاح، أن يتعلم كيف يموت باتباع تعليمات الناس المجزيين الذين يعرفون أن يموتوا في معمة الحياة. الزهد يمنحنا هذه الخبرة عن الموت".

ويقدر ما تفقد اللغة ارتباطها بالصمت تفقد جوهرها، فإذا هي تتحدث بصورة أوتوماتيكية انطلاقا من قوتها الخاصة التي تأخذها إلى النهاية. أما في لغة الشعراء فتبقى الكلمة متصلة بالصمت وتظهر كالشبح

للتفكير أو للكاتب أو للتأمل أو للتذوق أو الإصغاء نحتاج إلى الصمت. هناك شعوب تعلمت الصمت، وأنتجت من خلاله فنا وفكرا عظيمين. في المقابل هناك شعوب أخرى لا تتقن إلا الضجيج. ولذا نجدها بلا منجز حضاري. إذن الصمت أكثر من مفهوم فلسفي وجودي. إنه حقيقة له ملمس وتأثير. كما سنكتشف عند قراءة كتاب "عالم الصمت" للفيلسوف السويسري ماكس بيكار.

برابه المقدسة، وأن يتحدث عن تلك اللغة التي تملك أكثر مما هو ضروري للنظام والمعلومة، تلك اللغة التي تنسب إلى نفسها وتخلق شعرا بمحض اختياريها.

الصمت فضاء الكلام اللامتاهي، تتحرك الكلمات من خلاله وتطير في الأمداء، وتنزوي في الأماكن الضيقة، ذلك أنه، على حد قول بيكار، "عندما يتحدث شخصان إلى بعضهما، فإن شخصا ثالثا، يكون على الدوام، حاضرا: إن الصمت يُصغي".

وإذا كان من نوااميس الطبيعة والكون عودة الأشياء إلى أصلها ومرجعها فإن على الكلام أن يعود إلى الصمت كما يرجع الإنسان بعد الموت إلى المكان الذي جاء منه. الصمت ينبوع نقي يجدد ابتكار اللغة والكلمات ويصفيها من الرداء، ويجعلها تستمد منه براءتها وبساطتها

وواصلتها ورونقها، وهي التي يراها بيكار قد تالشت في ضجيج العالم الحديث بابتعادها عن فضيلة الصمت، وكل توقع لها إنما هو أني لاستعادة الصخب، إذ لم تعد توجد هناك لغة محددة وصمت مستقل

في العالم الحديث، حتى الصمت الآخر (الموت) قد أصبح مجرد شيء سلبي أو نهاية حتمية لما نسميه الحياة. مفهوم الموت ذاته تم قتله، ولا أعني هنا الموت الذي ذكره الفيلسوف واللاهوتي الروسي فلورنسي في قوله "يموت الإنسان مرة واحدة في حياته، وحيث إنه يفكر إلى خبرة الحدث فإنه ينجزه بغير إتقان، ويتحتم عليه، بغية أن يموت بنجاح، أن يتعلم كيف يموت باتباع تعليمات الناس المجزيين الذين يعرفون أن يموتوا في معمة الحياة. الزهد يمنحنا هذه الخبرة عن الموت".

سالم محمد الصقور
كاتب سعودي

بلغة شعرية أخاذة، وفي فضاء فلسفي وميتافيزيقي مشحون بالمعاني المفقودة في عصرنا الحاضر، يكتب السويسري ماكس بيكار (1888-1965) عن فضائل الصمت وفلسفته في مؤلفه الموسوم بـ"عالم الصمت". ذلك أن الصمت ظاهرة مستترة، اعتصمت بذاتها عن التسليح وعن أن تصبح قيمة تبادلية سوقية، فاستعصت على الاستثمار والريح عكس ظواهر أخرى عديدة وعظيمة على غرار الطبيعة والأرض والسماء والهواء والنار والإنسان ذاته.

الصمت لدى بيكار هو كل مستقل ونو وجود خاص، وليس ظرفا سلبيًا يزول بزوال الظرف الإيجابي المسبب له، إنه اللامرئي الحاضر، وغير الملموس الواضح، وغير المحسوس المتجسد، والمدت بلا حدود، والمتوفر دائما بتدفق يفوق كل هذا الضجيج الكوني. الصمت هو ما يعيد الأشياء إلى كمالها من خلال الترخل بها من عالم الإسراف إلى عالم السكون المثمر الذي ينضج فيه الزمن ويتكاثف.

الينبوع الأول

في كتاب "عالم الصمت" نقف على حقيقة أن ليس للصمت بداية، إنه مخلوق قبل الوجودات والمعاني كالحب والموت والولاء والإيمان والأمل، بل هي ترجع جميعها إليه؛ ترجع إليه لتتصل بما يوجد خلفه، بالقدس والمتعالي في هويته وقد طوقه الصمت واحاط به. كل ما هو مقدس وإيماني صرف لا يحضر دون هالة الصمت. إن الصمت شبيكة لا مرتبة تمسك الأرواح واللطائف وتصلها ببعضها بعضا في عالم آخر هو عالم ما فوق دنيوي.

لا يدعى بيكار منذ البداية أن هدفه توجيه القارئ إلى فلسفة الصمت، وإنما هو يحاول جاهدا أن يعيد اكتشاف الصمت من أجل اللغة والحقيقة والجمال من جهة اتصالها جميعا به لتتخلق مجددا داخله وتنتقل مملوءة بالحياة وزاخرة بالمعنى ومتحررة كالخيول في

